الشاعر القروي في مهرجان تكريمه
إلى العناقيد المثقلة بالجنى ألف وردة

«واسعة خطوة الشمس، أوسع منها يدٌ وفمٌ يرفضان رغيف المماليك، أوسع منها غيوم القصائد في القلب...»، غيوم تكوكب عناقيد الدَّوالي، وتسمن حبات الكروم...، وتجعل غصون الزيتون ميَّاسةً بحبَّاتها...

تهمس الرُّوح بهذه الكلمات للقادم إلى مهرجان تكريم «قدِّيس الوحدة العربيَّة»، الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري[1]... للقادم من الجنوب، من أرض عاملة، حيث يستجيب الفتية لنداء الشاعر:

صياماً إلى أن يفطر السيف بالدَّم وصمتاً إلى أن يصدح الحقُّ يا فمي

فيصدح الحقُّ، ويفطر السيف بالدَّم، ويكون عيد التحرير بشرى لمن مَهَرَ الأجيال والحقب وأغلى المهور، كما يقول السيد حسن الأمين مخاطباً الشاعر:

مَهَرتها الشعر ما هانت وما رخصت أغلى المهور لديها جرحك الطَّرب

بشرى لمن كانت المقاومة رسالته، فقاطع البضائع الانكليزية منذ

(١) ولد رشيد سليم الخوري، الشاعر القروي، في العام ١٨٨٧، في قرية البربارة، عمل في التدريس بعد تخرُّجه في عدَّة مدارس، ثمَّ هاجر إلى البرازيل سنة ١٩١٣، حيث عمل، في البداية، بائعاً متجوِّلاً. وإذ لم يوفَّق، عمل في حقل التعليم، ثمَّ مندوباً متجوِّلاً لبعض المحلَّات التجارية في الولايات المتحدة الأميركية. غالب الفقر بالقناعة، ولم ينفك عن دعوته لمحاربة الاستعمار ولقيام الوحدة العربية. اشترك في تأليف «العصبة الأندلسيَّة» عام ١٩٣٢، وتولَّى رئاستها. أصدر ديوانه الأول «الرشيديات» العام ١٩١٦، ثمَّ أصدر ستَّة دواوين أخرى. جُمعت دواوينه في ديوان واحد اسمه «ديوان القروي»، صدر العام ١٩٥٢. توفي القروي العام ١٩٨٤.

انفضاح وعد بلفور سنة ١٩١٧، وحدَّد دربه مخاطباً وطنه:

العيش حلوٌ في سبيل رقيِّه والموت أحلى في سبيل حياته

إن العيش الحلو الذي يرتضيه عيش حرٍّ كريم لأبناء الوطن جميعهم، فتكون دمعة الفقير «جمرة تسقط على الأحشاء فتلهبها»، وتنبت الموقف الملتزم قضايا الوطن.

نلمس حقيقة هذا الالتزام إن تتبَّعنا مواقف الشاعر. ونتوقَّف، منها، عند موقفين، على سبيل المثال:

الأول: يرفض الشاعر الرُّكوع، وهو تلميذ في السادسة عشرة من عمره، في مدرسة سوق الغرب.

والثاني: يقول في إحدى المناسبات، وبعد أن غدا شاعراً مرموقاً: «إني لمستعدٌّ لتقبيل أيدٍ تفيض على العرب بالأيادي البيض استعدادي لقطع كلِّ يد تتحرَّك لخيانتهم، فعلاقتي بمواطني تقوى وتضعف بقدر حبِّه للوطن لا بقدر حبِّه لي».

لعل هذا الالتزام النَّابع من إيمان عميق يجعلنا ندرك دلالات اختياره لقب القروي، وقد صار اسمه العلم، إنه لقب نعته به بعضهم، بوصفه سُبَّة، فاختاره هو لأنه يفيد انتماءً إلى وطنه وشعبه.

إن مثل هذا الالتزام النابع من انتماء إلى الوطن لجدير بالتكريم، لأنَّ التكريم إنما يكون لعقيدة وموقف وشعر ملتزم تكوكبهما عناقيد كروم الوطن المعطاء.

ومن أجدر بمثل هذا التكريم من الشاعر القروي؟

أليس هو المجيب عن أسباب اختياره هذا النمط من الشعر بقوله: «ما كدت أنهض حتى صكَّت مسامعي أنَّات أمَّتي، ولفحت وجهي زفراتها، فطويت جناحي عند سريرها مخضعاً خيالي لواقعها الأليم.. فكان شعري ألماً صارخاً في أغوار نفسٍ أزعجت عن المحل الأرفع ومثله العليا، فهي دائمة الحنين إليهما؟».

اختار الشاعر هذا النمط واعياً، فاستمر، طوال عمره المديد، «ينفض مزادة نفسه ليشبع الملايين من جياع الروح»، فيبلغهم تجربته الإنسانية.

وكان عطاء يتصف بالعودة إلى الأصول والينابيع، إضافة إلى اتصافه بالانبثاق عن هموم العيش، وهو عطاء يعبِّر عن الذات القومية في مرحلة كان العمل على تأكيد هذه الذات قضيَّتها الأساس في مواجهة الغزو الغربي الذي جزَّأ الوطن، وزرع كياناً عنصرياً في قلبه.

وإننا، إذ نقرأ الدِّيوان، في حلَّته الجديدة، في طبعته السابعة، نجد شعراً يحتفظ بمستواه الفنِّي الراقي: البسيط والعميق في الوقت نفسه الذي يتبنَّى فيه قضية وطن وشعب، فيتجاوز النَّظم والانبهار بأشكال وافدة في آن، وصنع الشعر...

صناعة الشِّعر جعلته بعيداً عن فئتين: الأولى غرقت في الماضي حتى التأبُّد، أو ظنَّت أن أهمية الموضوع تضفي على الشعر عظمة.

ابتعد الشاعر عن هذه الفئة، وسمَّى أصحابها «القرازيم»، فقال: «إن القرازيم لمسفُّون، ولو اتخذوا سدرة المنتهى أو سدة العرش عنواناً لما ينظمون».

والثانية فئة احتذت أشكالاً غربية، رافعة راية الانفصال بين الشعر وشروط إنتاجه ومهمَّاته.

إنَّنا، إذ نعيد قراءة شعر القروي، وقد كان زادنا في مراحل من العمر، ولا يزال، نجد شعراً ينأى عن الفئتين اللتين ذكرنا، وهما تفصلان الشعر عن الحياة: منبعاً ومصبَّاً...

إنَّنا، إذ نفعل ذلك، نجد شعراً يصدر عن الينبوع الوحيد للإبداع، عنيت عيش هموم الذات المتجذِّرة في هموم الوطن وقضاياه، هموم من يكون في حياته أشعر منه في شعره.. فيكون هذا الشعر عصارة الروح القادرة على استثارة المشاعر الإنسانية الشاملة، وهذا ما يؤكِّده الشاعر نفسه حين يقول: «وما الشاعر الوطني الحمي، في أمَّةٍ مستعبدةٍ، إلَّا الشَّاعر الإنساني قبل أي شاعر

سواه».

إن هذه الإنسانية توصل الشعر إلى مرقاة شعر الشعراء الرساليِّين، وهذا ما يفهمه القروي من الشعر حين يقول: «الشعر أرفع الفنون، وقد يسمو حتى يداني مرتبة النبوة»، ويؤدِّيه أربابه الرساليون الموهوبون، كاشفو الغبار عن عيني الإنسانية بما يؤتيه خيالهم من جديد أصيل، وحديث بالضرورة، لأنَّه لغة الحياة نفسها، يصدر كائناً كاملاً، وهذا ما يؤكِّده الشَّاعر القروي، حين يصف عملية إنتاجه الشعر، فيقول:

«أغيب في مناجاة لذيذة، أو أتنزَّى غيظاً وألماً وأسىً إذا كان الموضوع وطنياً، فلا ألبث أن تسنح لي الخواطر دراكاً، تلدها القريحة في الغالب سوية مقمَّطة، كاملة الصِّياغة والوزن».

إن بناءً لغوياً موسيقياً يصدر عن الحياة ليجسِّد الوجد بها ويعادله، وليكون لغتها القادرة على كشف الجوهري فيها، لشعر حقيقي يمطر غيوم القلب قصائد تنأى عن انتاج فئتين مختلفتين إلى حد التناقض، ولكنهما تشتركان في الصدور عن تجربة ذهنية، تتمثَّل باختيار أنموذج واحتذائه، تشتركان بالاستهلاك، وليس بالابداع.

فالنظم والتجريب الحداثي، كما يمارسه بعض الشعراء، سواء، إذ إنَّ جوهر كل منهما يقوم على اختيار أنموذج شعري واحتذائه، وهذا يؤدي إلى فصل النتاج الشعري عن واقعه، وعن ذات منتجه في آن، لأنه مرتهن، في الحقيقة، لواقع آخر وذات أخرى. وهذا ما أوقع حركة الشعر المعاصر في مأزق الإنتاج الإبداعي، إذ إنَّها فقدت في العديد من تجاربها المصدر/الينبوع الذي يصدر عنه الشعر.

إذ نعي هذا، ونرى القروي يعود إلى الينبوع: تجذُّراً في التراث وفي التجربة الشخصية الوطنية، نقول: إنه كان في عطائه الشِّعريي، مناضلاً مبدعاً

ووطنياً أصيلاً. وهو بهذا إنَّما يؤكد ما قاله مراراً عن عشقه اللغة العربية، ومما قاله في هذا الصدد:

«أمَّا أمُّ اللغات، فأتمنَّى لو يتَجدَّد عمري لأشبع من درسها، وأغترف من كنوز حكمتها المخبوأة».

يعطي القروي، في ميدان الفنية الشعرية، ما أعطاه في ميدان الحدث الوطني: سياسياً كان أم اجتماعياً.

وهكذا تكون ممارسته شاملة تنبع من رؤية متماسكة إلى مختلف قضايا عالمه وأشيائه، وما كان هذا ليكون لولا أنه امتلك خصوصية المبدع الذي يخشع في حضرة العطاء الشعري الجميل إلى درجة أن يلصق جبينه بالتراب، ويسكب من عينيه وشفتيه تسبيحة حارة تجسِّد الوجد وتعادله، في أثر استراحة القلم من تسطير عناقيد الجنى وكوكبتها.

فإليك، أيها الشاعر الكبير، وإلى العناقيد المثقلة بالجنى، ألف وردة تزيِّن أكاليل الغار التي تتوِّجك.

❐❐❐